المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830م،

أ.رشيـدة شـدري معمـــر، جـامعة البـويـرة

ملخص

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني تنوعا في المراكز التعليمية. سواء في المدن أو في الأرياف .حيث نجد الكتاتيب التي خصصت للتعليم الابتدائي - للأطفال الصغار-والمساجد التي تعددت مهامها بين أداء الصلوات وتحفيظ القرآن الكريم والتعليم .إضافة إلى المعمرات والزوايا التي لعبت دورا هاما خاصة في الأرياف سواء زوايا المرابطين أو زوايا الطرق الصوفية.وهذا دون أن نهمل دور المدارس وخاصة الرباطات التي مارست التعليم والجهاد في نفس الوقت.

الكلمات المفتاحية: المراكز التعليمية- المساجد –المدارس-التعليم

Abstract :

During the Ottoman period, Algeria had a variety of educational centers.whether in cities and in rural areas.where we find quoranic schools « katatib » that were dedicated to primary education.for yuong children .and mosques.which have many functions between the performance of prayers and memorization of the koran and education.

In addition to the « maamarats »and « zawiyas »that played an important role especially in the rural areas . whether the zawiyas of marabouts or of the sufism.and this without neglecting the role of schools « madaris »especially the « ribats » that practiced education and «Jihad »at the same time

مقدمة:

لقد تميزت مراكز التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني بتعددها سواء في الحواضر أو في الأرياف :

أ-<u>الكتاتب</u> :

الكتاب أو المسيد، وهو تصغير لكلمة مسجد[1] ، وقد كانت بمثابة مرحلة التعليم الأولى أو المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر يسمى في الريف "الشريعة" لأنه تدرس به الشريعة أما في المدينة فيسمى "مسيد"[2]، وحسب "بوعزيز" فإنها أسست لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال، و الحفاظ على نقاوتها.[3]

وكانت هذه المؤسسة التعليمية منتشرة في كامل البلاد ،الأمر الذي أدهش الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، إذ كتب الجنرال "دوماس"(Daumas) تقريرا له : "أن التعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرا ....فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت أن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة و الكتابة ".كما علقت على ذلك الباحثة "إيفون توران"(Yvonne Turin) صاحبة كتاب "مجابهات ثقافية بقولها:"إن لم يكن كل الأطفال قد تعلموا القراءة و الكتابة فإنهم جميعا قد مروا بالمدرسة الابتدائية "الكتاب " وكانوا يستطيعون قراءة القرآن في صلواتهم."[4]

وقد خصص الكتاب لحفظ القرآن[5] و تعليم القراءة و الكتابة و بعض مبادئ الحساب[6]، و كان عدد المتمدرسين في الكتاب الواحد بين خمسة عشر وعشرين صبيا[7]، يقضون في الكتاب ثلاثة أو أربعة أعوام[8]،و للذين يرغبون في مواصلة الدراسة يبقوا سنين أخرى لحفظ القرآن عن ظهر قلب أو يلتحقون بالمدرسة أين يتلقون تدريسهم في الفقه و التوحيد و النحو على يد العلماء من أئمة و مفتيين و قضاة[9] هذا في الحواضر أما بالريف فيلتحقون غالبا بالزوايا لإكمال دراستهم الثانوية[10].

ب- المساجد:

كانت المهد الأول للتعليم[11]، فمنذ العهود الأولى للإسلام كانت إلى جانب وظيفتها الدينية تقوم بوظيفة التعليم،و استمرت على هذا المنوال عبر مختلف الفترات الإسلامية رغم ظهور المدارس في القرن 5هـ، وبالرغم من الانتشار الواسع لهذه الأخيرة لم تستطع الإنقاص من قيمة المساجد وإنما تعايشا معا في نشر رسالة التربية و التعليم في العالم الإسلامي[12].

كانت المساجد أماكن لأداء الصلاة وتحفيظ القرآن والتعليم،ومعالجة مشاكل الناس[13]، إضافة الى التحريض على الجهاد ضد العدو ،حيث عملت على صهر التناقضات الداخلية في تيار الجهاد، فلا فرق بين تركي و عربي[14]، كما و أن نتائج المعارك كانت تقرأ على منابرها[15].

و بما أن المساجد كانت بمثابة الرابطة بين الأهالي في الريف أو المدينة ،كثرت العناية بها فلا نكاد نجد قرية أوحيا في المدينة من دون مسجد، ومن بين هذه المساجد ما كان يسمى "جامع الخطبة" لأنها كانت تؤدى فيها صلاة الجمعة والعيدين دون غيرها من المساجد التي غالبا ما تنسب إلى مؤسسيها من سياسيين أو عسكريين أو تجار ،بخلاف الزاوية التي غالبا ما تنسب إلى الأولياء الصالحين.[16]

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن بناء المساجد كان نتيجة للمبادرات الفردية، لأن الدولة لم تكن تولي الاهتمام لبناء المساجد وغيرها من المؤسسات التعليمية والدينية ،وما كان يقوم به الحكام من تشييد المساجد وحبس الأوقاف لها من مالهم وأملاكهم الخاصة، كان تعبيرا عن واجبهم الديني[17]، خاصة لما كثرت الغنائم البحرية التي أدت إلى كثرة المساجد في الجزائر[18].

والملاحظ على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها التعليمية ، حيث انفردت كل مدينة بجامعها الأعظم، الذي يمثل معهدا للتعليم[19]، كالجامع العظيم في قسنطينة وجامع بجاية وجامع تلمسان و الجامع الأعظم في مدينة الجزائر ، الذي كان خلال العهد العثماني مركزا للنشاط الديني والقضائي إذ فاق نشاطه المساجد الحنفية كجامع صفر و الجامع الجديد[20]، اضافة الى كونه مقرا للمفتي المالكي والمجلس العلمي، و منبرا للمناظرات بين العلماء، وكسب ود السلطة عند البعض[21]، و للفصل في القضايا التي لم تفصل فيها المحاكم[22]،كما مثل منبرا أساسيا معارضا للسلطة (!)أواخر العهد العثماني[23].

هذا ويعدّ الجامع الكبير من أشهر مساجد الجزائر وأكثرها أوقافا إلا أن هذا لم يؤهله ليصبح جامعة كالأزهر والزيتونة و القرويين[24]، هذا وتعد عائلة قدورة أشهر من تولى الإفتاء به، حيث كان يضم المفتي و الوكيل و إمامان للصلوات الخمس و تسعة عشر أستاذا وثمانية عشر مؤذنا و ثلاثة وكلاء، واحد منهم نائب للمفتي، ليأتي بعده الجامع الجديد مقر المفتي الحنفي الذي يعد في مقام شيخ الإسلام[25] ويذكر فونتر دي برادي "(Venture De. P.) أنه وجد بمدينة الجزائر وحدها إثنى عشرة مسجدا جامعا وعدد من المساجد الصغيرة، أشهرها الجامع الكبير[26]، في حين "دوفو" (Devoulx) يذكر أن عدد مساجد الجزائر سنة 1246هـ/1830م كان 13 جامع خطبة و109 مسجدا و32 ضريح و12 زاوية[27]، لكن "شوفال"(Shuval) يذكر أن بها 14 جامع خطبة[28].

أما قسنطينة فحسب الورثيلاني الذي زارها في القرن 18م، يوجد بها خمسة جوامع خطبة[29]، في حين أحصى بها "فيرو" (Feraud) 75 مسجدا وجامعا إضافة إلى سبعة خارج المدينة و هذا الإحصاء كان عهد صالح باي[30]، أما "قايد"(Gaid) فيذكر أن بها قرابة مائة مركز ديني بين مسجد وزاوية و جامع ومدرسة[31]، في حين بلغ عدد مساجد عنابة 37 مسجدا أشهرها مسجد "سيدي مروان " ،أما أشهر مساجد بجاية هو

ذلك الذي بناه مصطفى باشا، إضافة إلى المسجد الذي بناه أحمد القلي بالقل سنة(1170هـ/1754م) اعترافا منه بمساعدة أهلها عندما كان آغا[32].

كما عرفت حواضر الغرب الجزائري مساجد متعددة بلغ عددها بتلمسان حسب "إيمريت" (Emerit) 50 مسجدا أغلبها صغيرة[33]، لكن هناك من يقدم إحصاء آخر لعدد مساجد المدينة الذي بلغ 60 مسجدا[34]، أما بمعسكر فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية: مسجد السوق و المسجد العتيق و المسجد الكبير، وقد استفادت هذه الحواضر من الإصلاحات العمرانية و الثقافية التي بادر بها الباي محمد الكبير الذي شيد المسجد الكبير المعروف باسمه والذي يعتبر من أروع وأهم مساجد الإيالة[35].

لكن و رغم وفرة المساجد إلا أن بعضها كان في حالة متدهورة، ومنها من لم تكن له أوقاف لصيانته، فنجد مثلا أن أحمد ساسي البوني يشتكي خراب مساجد عنابة للداي محمد بكداش، فقال :"خربت المساجد وقل فيها الساجد"[36]، كما يقدم الورثيلاني وصفا لبعض المساجد في القرن 18م بهذه العبارات "فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث بل و لا مهدما قد جدد و لا واهيا قد أصلح"[37]، و هو يتكلم عن إهمال الحكام عن صيانة المساجد لكن في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي برزت محاولة البعض منهم النهوض بأمور المساجد مثل: صالح باي ومحمد الكبير اللذان عملا على صيانتها وحفظ أوقافها[38]، التي يعود مردودها لصالح العلم وللقائمين عليها.

ج- الزوايـا:

احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة و التعليم خاصة بالأرياف[39]، ويعود هذا الأمر إلى غياب المؤسسات الثقافية الأخرى وهو ما سمح لها بالقيام بوظيفة تعليمية إضافة إلى وظيفتها الدينية.

لقد مثلت الزاوية المسجد و المدرسة في آن واحد[40]، فهي مقر للعبادة و الدراسة، كتدريس علوم الدين و الفقه، ومبادئ القراءة و الكتابة، إضافة إلى كونها مأوى لعابري السبيل[41]، كما عملت على دمج فئات المجتمع بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الجهوي أو حي الإقامة أو المهنة[42].

لقد جمعت الزاوية في تعليمها بين التربية الروحية و العسكرية كونها مبنية على نشر الدعوة الصوفية و التهيؤ للجهاد[43]، فهي بديل متطور للرباط[44].

و بالتالي كان انتشارها كبيرا -خاصة على مستوى الأرياف - حيث انعدمت المدارس فلعبت دورا هاما في الحياة الثقافية و التعليمية.

و قد ظهرت في المغرب العربي منذ القرن 13م لتحل محل الرباط تدريجيا واستمرت في التطور حتى استقرت وظائفها النهائية في العهد العثماني على يد الطرق الصوفية، والمرابطين[45]، لهذا كان اسم" الزاوية" يطلق على مقر المرابط في حياته أو بعد مماته، و قديكون أسسها بنفسه أو أسست على ضريحه[46].

شهدت الزاوية في القرن 15م نموا واسعا كان كرد فعل على ضياع الأندلس وعلى الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية حيث عمل شيوخها على إحياء الرباط لتجمع بهذا بين العبادة و التعليم و الجهاد[47]، كما وأنها استطاعت كسب ثقة الناس و هذا يعود إلى تيسيرها التعليم للجميع إضافة إلى دورها على مستوى العلاقات الاجتماعية من خلال التوسط في قضايا قضائية بين السكان[48].

وقد قسمت الزوايا في الجزائر إلى نوعين: زوايا حرة لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفية. يدير شؤونها مجلس يتكون من الطلبة، وزوايا أخرى عكس النوع الأول تخضع في تسييرها للشيخ المؤسس أو خلفه، كما نجد فيها النوع الخلواتي و غير خلواتي ،فالأول يدعي شيوخها المعرفة بالأسرار الغيبية لهم مريدين وورد خاص بهم، ويسمون بالطرقيين و يقومون "بالحضرة" لهم فروع في كامل أنحاء البلاد، أما النوع غير الخلواتي لا يدعي شيوخه معرفة الغيب، وهم أيضا لهم ورد خاص[49].

تتلمذ بهذه الزوايا غالبية علماء الجزائر في العهد العثماني أمثال سعيد قدورة، أبو راس الناصري، الأمير عبد القادر، محمد بن علي السنوسي[50]*، حيث كانت تجلب إليها العديد من الطلبة ،فزاوية سيدي تواتي مثلا يدرس بها نحو مائتي طالب، وهي مركز لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد[51]، في حين كان يدرس بزاوية جماعة الصهاريج خمسمائة طالب و تقوم بالإنفاق عليهم كلهم، أما زاوية نقاوس فهي تنفق على مائتي طالب[52]، بينما زاوية سيدي منصور** كان يقصدها من مائة إلى مائة و خمسين طالبا ،وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي، والتي تميزت بمستوى تعليمي عال يدرس بها مائة وخمسة وعشرين طالب ويدرس بها خمسة وعشرون مدرسا[53].

كانت الزاوية غالبا ما تضم غرفا لإيواء الطلبة و أخرى للدراسة، وتكون تحت إشراف المقدم أو الوكيل[54]، وأما بعض الزوايا فكان الإشراف عليها متوارثا في العائلة، ويساعد خليفة المرابط -الذي يتولى التعليم أو الإشراف على مدرسها -الوكيل و عدد من الخدم[55]، كما وجدت بها مخازن للمؤونة من أجل تمويل الطلبة و الفقراء[56].

لقد كان من مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الزوايا في كامل أنحاء البلاد، خاصة بالأرياف ويعود هذا إلى افتقارها للمؤسسات التعليمية الأخرى، إضافة إلى انتشار الطرق الصوفية التي كان مركزها الزوايا، فكانت مدينة الجزائر وحدها تضم عددا كبيرا من الزوايا والأضرحة، فقد أحصى بها "دوفو"(Devoulx) سنة 1830م اثنى

عشر زاوية واثنان و ثلاثين ضريحا[57]، وبالإضافة إلى زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي وزاوية الولي دادة، وزاوية سيدي عبد القادر الجيلالي، هناك عدد كبير منها منسوب إلى الأفراد ومنها ما هو منسوب إلى الجماعة كزاوية الأشراف و زاوية الأندلسيين[58].

أما مدينة قسنطينة فقد وجد بها ست عشر زاوية ،منها ما كان تابعا للعائلات الكبرى بالمدينة ،مثل زاوية أولاد الفكون وزاوية ابن نعمون وزاوية أولاد جلول[59]، كما اشتهرت أيضا تلمسان بزاوياها التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين زاوية أشهرها زاوية عين الحوت[60]، إضافة إلى عدة زوايا أخرى بالغرب الجزائري كالزاوية الموجودة في جبل بني راشد، و التي كان لها دور بارز في نشر العلم في الريف، وقد تخرج منها عدد من العلماء والفقهاء[61].

وتعد منطقة القبائل أغنى المناطق بالزوايا، حيث تصل حتى الخمسين زاوية أشهرها زاوية "تيزي راشد" المعروفة بزاوية "ابن أعراب"، وهي الزاوية التي درس بها الباي محمد الدباح، وزاوية الأزهري بآيت إسماعيل[62]، هذا دون أن نغفل الدور الذي قامت به زوايا الصحراء كزاوية عين ماضي التي وصل تأثيرها حتى الحدود الجزائرية المغربية[63]كما كانت هناك زوايا أخرى لها تأثير بارز على الحياة الثقافية و الاجتماعية كزاوية القادرية بالقيطنة، و زاوية قرومة بمنطقة القبائل وزاوية طولقة[64]، وغيرها من الزوايا الأخرى التي هدفنا ليس ذكرها و تعدادها بقدر إبراز دورها في ميدان التعليم، ونشر الدين و التوسط لحل القضايا المدنية أو الدينية و مساهمتها في توطيد العلاقات و الروابط الاجتماعية.

وعلى هذا الأساس عملت الزوايا على تحفيظ القرآن الكريم و نشر التعليم، والإسلام في المناطق النائية ،كما كانت ولازالت مخازن للكتب و المخطوطات، اضافة الى مساهمتها في إزالة الفوارق الاجتماعية ،وتوطيد العلاقات بين فئات المجتمع ومحاربتها للسلطة المستبدة، فالزاوية الواحدة تضم الفقير و الغني، العالم و الأمي ،لكن اعتمادها

للمنهج التقليدي في التعليم أدى بها إلى الركود و الجمود الفكري و شيوع الدروشة والانحرافات[65].

تعتمد هذه الزوايا في الإنفاق على المتمدرسين و على العلماء المدرسين بها على أموال الهبات و الزكاة[66]، و الهدايا التي يقدمها أفراد القبيلة إضافة الى ما يجمعه الطلبة من المناطق التي تخضع لنفوذها، دون أن ننسى تبرعات المسافرين و الزوار الذين يقصدونها للتبرك بضريح مؤسسها[67]، كما كانت تخصص لها أراض يعود مردودها لصالح المدرسين والطلبة[68]، وغالبا ما تكون هذه الأراضي محيطة بها يشتغل فيها رجال الزاوية[69]، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن حبوس الزوايا أماكن لا يجرؤ أحد على التعدي عليها[70].

د-<u>المدارس</u>:

تأسست المدارس في المغرب من طرف الموحدين ،حيث أدخلها يعقوب بن يوسف عام 580هـ/1184م[71]، وكان ظهورها لعدم إستطاعة المسجد القيام بكل تلك المهام وغالبا ما كانت تشيد بجوار المساجد[72]، التي و بالرغم من ظهور المدارس إلا أن أنها استمرت في العمل على أنها أماكن للتعليم حيث لا نجد فرقا كبيرا بينهما[73].

وكانت المدارس تقوم بتعليم الدين وعلوم اللغة ومبادئ القراءة والكتابة[74] والحساب وطرق التداوي[75].وقد عرف أبوراس الناصري المدرسة بقوله:"المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبني لدراسة العلم أي تعليمه و تعلمه"[76].

لقد عرفت المدارس انتشارا واسعا خلال العهد العثماني حيث لا يكاد يخلو حي من أحياء المدن من هذه المدارس، الأمر الذي أذهل كل من زار الجزائر خلال العهد العثماني من كثرة مدارسها وقلة الأمية بين سكانها[77].

لعبت هذه المدارس في المدن نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف وهي التي كانت تزود الدولة بما تحتاج إليه من الموظفين، وكان تعيين المدرسين بها من طرف الداي و باقتراح من مدير الأوقاف، وأغلبهم يجمعون بين التدريس و الإفتاء والقضاء[78].

وقد وجدت المدارس في مختلف حواضر الجزائر، فمدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي على 229 مدرسة يدرس بها 5583 تلميذًا[79]، منها المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبوراس الناصري واعتبرها مركزًا للتعليم العالي[80].

أما مدارس قسنطينة فلم تكن تقل أهمية عن مدارس مدينة الجزائر،فقد عرفت هي الأخرى إشعاعا ثقافيا خاصة عهد صالح باي الذي أسس المدرسة الكتانية عام 1190هـ/1776م لتعليم مختلف العلوم، وقد جعل لها نظاما خاصا[81]، كما أنه أسس عدة مدارس في "عنابة و جيجل " وكان يلحق بكل مدرسة مسجدا و كتابا ومكتبة[82]، وقد قدّر عدد مدارس قسنطينة عند دخول الفرنسيين ب90 مدرسة[83] لكن "إيمريت" (Emerit) يذكر أن عددها كان 86 مدرسة ،يدرس بها 1350 تلميذًا[84].

أما مدارس تلمسان فقد بلغ عددها حسب "إيمريت" 50 مدرسة صغيرة مخصصة لـ12000 أو 15000 نسمة[85]، بالإضافة إلى مدرستين للتعليم العالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام[86]، يتردد عليها حوالي ألفي تلميذ وستمائة طالب للمدرستين الأخيرتين[87].

وقد استفادت مدارس الغرب الجزائري من إصلاحات الباي محمد الكبير، وهذا لتدعيم و تنشيط الحياة الثقافية[88]، حيث أسس المدرسة المحمدية في معسكر لتصبح من أكبر مدارس بايلك الغرب و قد أشار إليها أبوراس الناصري في حديثه عن المدارس[89]، وهي المدرسة التي قال عنها صاحب "الثغر الجماني " كاد العلم أن يتفجر من جوانبها[90].

أما مدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية والتي شيدت نهاية القرن 16م من طرف الشيخ محمد بن الشريف الأندلسي[91]، حيث كانت ملتقى العلماء ومقر للمبادرات الفكرية وقد درّس بها عدة علماء بارزون أمثال أبوراس الناصري[92]، وقد إشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه و الحديث و علم الكلام[93].

و بالبرغم من كثرة المدارس في الجزائر إلا أنها كانت تفتقر لمؤسسة للتعليم العالي، رغم أن"فونتير دي برادي"(Venture De.P.) يشير إلى وجود ثلاث "جامعات

"بها[94]، إلا أنها في الواقع لم تكن بها جامعة بالمعنى الصحيح لأنه لم يكن يوجد بها مدرسة للتعليم العالي تضاهي الأزهر و القرويين و الزيتونة[95].

هـ- الربـــــاط:

اشتهرت الرباطات بحراسة الثغور وهذا منذ أوائل الفتح الإسلامي وازدادت أهميتها عندما تكالبت الأطماع المسيحية على شواطئ المغرب العربي و الشمال الإفريقي إثر الحروب الصليبية[96]. فكان الرباط" عبارة عن الإقامة للجهاد ضد العدو بالحرب"[97]، لذا اعتبر المرابطون أو رجال الرباط آنذاك مجاهدون[98].

كما وأن الرباطات كانت عبارة عن معاهد دينية[99]، تشبه الزوايا ،غير أنها مواقع أمامية في وجه العدو ،كان الهدف من تأسيسها هو الجهاد ،حيث يكون الطلبة جنودا و علماء في نفس الوقت[100]، لكنها لم تكن خاضعة لأي طريقة صوفية ،بل كانت متفتحة على كل التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية[101]، وجل مؤسسيها أو المشرفين عليها كانوا علماء دين[102]، كما أنها كانت مقصدا لبعض العلماء بغرض التعلم و التعليم ، فالورثيلاني يقول: "كنت أصوم فيها رمضان (بجاية) ناويا للرباط ،مع تعليمي الطلبة راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم ..."[103].

ونظرا لاشتداد الخطر الإسباني اهتم بها العثمانيون[104]، بعدما انحصرت بالغرب الجزائري لاستمرار التواجد الإسباني في وهران و المرسى الكبير[105]، و كان لهذه الرباطات دورا كبيرا في تحرير وهران بعدما عملت على تضييق الخناق على الإسبان، واستنزاف طاقتهم الحربية وإرغامهم على الاستسلام[106]، وتجدد الاهتمام بالرباطات عهد الباي محمد الكبير الذي أحي الرباط خلال الفتح الثاني لوهران عام 1792م، حيث جعل التعليم مقتصرا على الرباط، و هذا تشجيعا منه للالتحاق به من أجل الجهاد و قد وصفه إبن سحنون بقوله :

ورتب المرابطين في الجبل من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكل مقدام وهمام وبطل منذ بدا باد الضلال و بطل .
مؤمرا شيخنا الجلالي محمد الأحق بالإجلال

وقد شارك في هذا الرباط عدة علماء منهم الطاهر بن حواء ومحمد المصطفى بن زرفة، والشيخ محمد بوجلال الذي كان يرأسه حيث كانوا يدرسون و يحاربون[107].

و-المعمرات:

هي عبارة عن معاهد دينية لتعليم القرآن و العلوم عموما انتشرت في البوادي بمنطقة القبائل خاصة بعد الاحتلال الإسباني لها[108]، وحسب" بوعزيز" فهي تشبه أحيانا الكتاتيب القرآنية و أحيانا تشبه الزوايا غير خلواتية[109]، وكثيرا ما آزرت الرباط في الحرب[110].

كانت لها أحباس و قوانين داخلية محكمة وهو الفرق بينها و بين الزاوية التي تخضع لشيخ الطريقة أو مقدمها، وفي حالة حدوث أي خلاف داخلي يتولى قدماء المتخرجين منها مهمة الإصلاح و إرجاع الأمور إلى نصابها[111]، فكانت المعمرة تسّير ذاتيا و طلبتها ينقسمون إلى طبقات:

-القداش :هم التلاميذ الصغار.

-الطلبة: وهم فوق القداش سنا وثقافة .

-المقدمون و الوكلاء و الشيوخ الكبار، وهي أعلى طبقة مهمتها تسيير المؤسسة التي يرأسها شيخ مسن يساعده عدد من كبار الطلبة و المقدمين والوكلاء ،وبالإضافة إلى مهمة التعليم كانت تأوي المساكين وتقدم لهم المساعدات[112].

ي-المكتبات:

لتسهيل عملية المؤسسات السابقة ضمت الجزائر عددا هاما من المكتبات، التي تحتوي على العديد من الكتب التي كانت إما إنتاجا محليا عن طريق التأليف أو النسخ، أووصلت الجزائر من مصر و الحجاز و الأندلس[113]، فالتمغروطي يذكر أن مدينة الجزائر في القرن 16م كانت غنية بالكتب "الكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقيا[114]، أما حواضر بايلك الغرب اشتهرت بها مكتبات تلمسان ومعسكر مازونة بما تضمنته من مخطوطات ومؤلفات وقد وصل عدد المكتبات بها 20 مكتبة[115]، منها المكتبة التي أوقفها الباي محمد الكبير على المدرسة المحمدية بمدينة معسكر[116].

و الشيء نفسه يقال عن مدينة قسنطينة التي كانت زوايا و بيوت أسرها تعج بالمكتبات التي حوت كتب المشارقة و الأندلسيين، إضافة إلى المؤلفات المحلية خاصة في عهد صالح باي ،الذي وفر الاستقرار و شجع العلماء وجلب الكتب وحبس الأوقاف على

الطلبة[117]، وحسب ما أورده"قفاريل" (Gaffarel)" أن أهلها كانوا مولعين باقتناء الكتب والبحث عن نفائس المخطوطات إن وجدت[118].

فغنى مكتبات الجزائر كان نتيجة انتشار حركة التأليف و النسخ ، بالإضافة إلى الكتب التي كانت تصل إليها عن طريق الحجاج و العلماء الرحالة، فالجبرتي ذكر أن حاجا جزائريا حاول إغواءه حسب قوله ليبيعه كتابًا في الفلك للسمرقندي، وبعد رفضه اشترى هذا الحاج نسخة منه لإبراهيم الزمردي ب 20 ريالاً إضافة إلى عدد كبير من الكتب[119]، كما يذكر ابن حمادوش في رحلته عددا من الكتب التي اشتراها، وهو شأن متولي الجامع الكبير في الجزائر الذي اشترى كتبا وصلت قيمة الكتاب الواحد 600 دينار ذهبا و هذا في القرن 17م[120]، لكن شراء الكتب لم يكن دائما للاستفادة العلمية، بل كان عند البعض للتفاخر بها خاصة بين بعض العائلات[121]، وحتى شيوخ القبائل كانوا يقلدون الملوك و السلاطين في إنشاء خزائن الكتب مثلما فعل أبو عبد الله محمد الصخري بن أحمد الشريف، شيخ قبيلة الدواودة المعادية للأتراك[122].

وهناك كتب وصلت الجزائر عن طريق العثمانيين أنفسهم فالقضاة و المفاتي والدراويش الذين يرافقون الجند من اسطنبول غالبا ما كانوا يحملون مكتباتهم الخاصة معهم[123]، كما استفادت الجزائر من تراث الأندلسيين الذين هاجروا إلى الجزائر و جلبوا معهم كتبا كثيرة وهذا ما أشار إليه التمغروطي بقوله "....وتوجد فيها (مدينة الجزائر) كتب الأندلس كثيرا.[124]

وتجدر الإشارة في هذا الإطار أنه كان في الجزائر نوعان من المكتبات منها العامة والخاصة، وغالبا ما كانت هذه المكتبات بجوار المسجد أو المدرسة، فالمكتبات العامة كانت ملحقة بالمساجد و المدارس و الزوايا، حيث كانت مساجد الخطبة تحتوي على خزائن الكتب التي أوقفت على العلماء و الطلبة، وأشهرها مكتبة الجامع الكبير بمدينة الجزائر ومكتبة المدرسة الكتانية في قسنطينة[125]، وقد ذكر ابن المفتي أن الجامع الكبير على عهده وجد بها حوالي ثلاثمائة مجلد، وهذا بالرغم من الإهمال و التلف و النهب الذي تعرضت له[126]، أما المكتبات الخاصة فعددها كبير جدا ،وتعود خاصة إلى

العائلات التي نالت شهرة علمية، وضخامة مكتباتها يرجع لاستمرارها لعهد طويل، كعائلة الفكون التي تملك أضخم مكتبة وهي مكتبة حمودة الفكون، التي يوجد بها 2500 مجلد[127]، فمدينة قسنطينة وحدها وجدت بها17 مكتبة خاصة حسبما ذكره "قفاريل"(Gaffaral)[128]، أما ببايلك الغرب فقد اشتهرت مكتبة أبوراس الناصري التي حسبها عليه أحد بايات وهران وسماها مكتبة "المذاهب الأربعة"[129]، وكما ذكر "الورثيلاني" في رحلته أن لوالده خزانة كتب لم توجد عند غيره[130].

إضافة إلى هذه المراكز الثقافية و العلمية، كانت الدكاكين التجارية تستعمل للشراء والبيع نهارا و للمسامرات الأدبية ليلا، وحتى منازل العلماء كانت مراكز يومية يتلقى فيها الطلبة الدروس خاصة في الأماكن التي لا توجد فيها لا زاوية و لا مدرسة للتدريس ويضاف إلى هذا النوادي المنزلية التي تقام في منازل أعيان البلد،كالدايات و البايات والقضاة و المفاتي، حيث يجتمع عندهم العلماء لدراسة كتاب ما[131] ، فإبن ميمون*** كان له دار كالنادي يجتمع فيها العلماء كابن حمادوش و إبن المفتي****، إبن علي، و إبن عمار[132]*****.

وتجدر الإشارة هنا بأن معظم الكتب الموجودة في هذه المكتبات كانت كتبًا دينية في التفسير و الحديث و الفقه و غيرها، وهذا بحكم أن الثقافة خلال العهد العثماني كانت دينية أكثر منها أدبية أو علمية، كما أن الهدف من ذكر هذه المراكز لم يكن بغرض تبيان عددها بقدر ما كان الهدف هو إبراز الدور الذي قامت به من أجل خدمة الدين و الثقافة.

الهـوامش:

(1)- بونار رابح، "الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر"، **الأصـالة**، عدد، 8، 1972، الجزائر، ص 84.

(2)- العيد، مسعود" حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني" ،**سـرتا**،العدد3، ماي 1980،الجزائر ص61، 62.

(3)- بوعزيز يحي ،" أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م" ،**الثقافة**، عدد63، 1984 ،ص 15.

(4) - TURIN(Y.), Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale (1830-1880), F.Maspero, Paris, 1971, p127.

(5)- سي يوسف محمد، " نظام التعليم في بلاد الزواوة بايالة الجزائر خلال العهد العثماني" **الحياة الفكرية في الولايات العربية** ،ج1،مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ، زغوان ، تونس ، 1990، ص193.

(6) - BOYER, (P.) La vie quotidienne à Alger a la veille de l'Intervention française, Imp. Nationale . Monaco, 1964, p199.

(7) - Ibid, p201.

(8) - Dr SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis 1980, p339

(9) - BOYER, La vie quotidienne..., p202

(10)- العيد، المرجع السابق، ص62.

(11) - Encyclopédie de l'islam, T5, p400

(12)- العيد، المرجع السابق ص 64.

(13)- بوعزيز، المرجع السابق ص12.

(14)- العسلي بسام، الجزائر و الحملات الصليبية (1571-1791)، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان،1986ص184.

(15) – DEVOULX(A.), " Notes historiques sur les moques et autres édifices religieux d'Alger", in **RA** N° 5, 1861, p390.

(16)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830،دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1998،ج1،ص245.

(17)-، نفسه، ص247.

(18)- مؤنس حسين،تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح إلى الغزو الفرنسي،ط1،دارالعصرالحديث،بيروت ،1992،ج3،ص351.

(19) -العيد ، المرجع السابق،ص 64.

(20) - DEVOULX, Notes historiques ...., p390.

(21)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 259.

(22) - DEVOULX, Op cit, p170.

(23)- سعد الله، المرجع السابق، ص246.

(24)- التميمي، عبد الجليل، "من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم بمدينة الجزائر" **المجلة التاريخية المغربية**، العدد19-20 ،1980تونس ،، ص158.

(25)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص259.

(26) - VENTURE (DE .P), Alger au 18eme siècle, Fagnan, Alger, 1898 , p180.

(27) - DEVOULX (A.), Les édifices religieux de l'ancien Alger, bastide, Alger, 1870, p03

(28) - SHUVAL, Op.cit, p192.

(29)- الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق،محمد بن ابي شنب، فونتانا ،الجزائر،1907، تحقيق،محمد بن ابي شنب، فونتانا، الجزائر،1907، ص685

(30) - FERAUD (CH.)," Les anciens établissements religieux Musulmans de Constantine", in **R.A** N°10, 1868, p130.

(31) - GAID (M.), Chronique des Beys de Constantine, O. P.U, Alger, S.D, p131.

(32)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص250.

(33) -EMERIT (M.), l'Algérie à l'époque d'Abd-El Kader, la Rose, Paris, 1951, p82.

(34) - CONAL (J.), " Monographie de L'Arrondissement de Tlemcen" in **B.S.G.A.O** N°VII 1887, p107

(35) - GORGUS (A.)," Notice sur le Bey d'Oran Mohamed El Kebir", in **RA,** N°1, 1866, p408.

(36)- إبن ميمون ، محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت، الجزائر 1972 ، ص115، 116.

(37)- الورثيلاني ، المصدر السابق ،ص 266.

(38)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص251.

(39)- سي يوسف، المرجع السابق، ص193.

(40) - EMERIT (M.), « L'état intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 » in **R.T.A.S.M.P**, 2ème semèstre 1954, p10.

(41) - BODIN (M.), " Traditions indigènes sur Mostaganem et Tadjedit " in **B.S.G.A.O**,1925 p17.

(42) - STAMBOULI (F.) – Zghal (A.), « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », in **ANN .AFR,N**, N°11, 1972, p207

(43)- مزيان، المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، **الثقافة**، عدد22، 1986، ص18.

(44)- العيد، المرجع السابق، ص69.

(45) - RINN, Marabouts et Khouans, étude sur l'islam en Algérie, A. Jourdan, Alger 1884, Op.cit, pp 173 - 174.

(46)- الفيلالي ، محمد الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية و أثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي، الجزائر، 1976 ، ص27.

(47) - RINN , Marabouts et Khouans, p175.

(48) -BODIN,Op.cit ,p25.

(49)- بوعزيز، ، المرجع السابق، ص16

(50)-العيد، المرجع السابق ،ص 63.

* هو مؤسس الزاوية السنوسية بليبيا سنة 1843م.

(51) - FERAUD, (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnault, Paris, 1869, p217.

(52) - Dr, SHAW, Op.cit, p142.

(**)- أسست مع زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي في القرن 17م و هما تابعتان للطريقة الرحمانية.

(53) - SALHI (M. B.), "Confreries religieuses et champs religieux en grande Kabyle au milieu du xx^{eme} Siècle, La Rahmanyya ", in **ANN.AFr .N** .N°33 ,1994 ,p258.

(54) - DELPECHE(A.) ," la Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa ou Ali N' Founas",in **R.A,** N°18,1874, p87

(55)- الفيلالي، المرجع السابق ،ص27

(56) - LAYER(K), "Sainteté maraboutique et mysticisme, contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane" in **Insanyyat** N°3, 1997 ,pp 21-23.

(57) - DEVOULX, Les édifices ..., p03.

(58)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص268 - 269.

(59)- نفسه ،ص 264.

(60) - EMERIT, L'Algérie à l'époque ....,p13.

(61) - الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ،مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية-الحامة-، رقم 1632 ، ص105.

(62) - سعد الله ،المرجع السابق ،ص 265،266.

(63) - الشنتناوي أحمد وآخرون ،دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 9، مركز الشارقة للابداع الفني ،1998ص203.

(64) - العيد ، المرجع السابق،ص63.

(65) - بوعزيز المرجع السابق ....،ص19.

(66) - TURIN, Op.cit, p124.

(67) - إبن سحنون ، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني،تحقيق وتقديم البوعبدلي مطبعة البعث،قسنطينة،1973 ،ص78.

(68)- EMERIT, L'état Intellectuel ..,p06

(69) - MERCIER(E.),Etude sur la confrérie des khouans de sidi Abd- El Kader El Djellani, Arnolet, Paris, 1869, p17.

(70)-SAIDOUNI (N.D.), l'Algérois rural à la fin de l'époque Ottomane, (1791-1830), Der –El Gherb El Islami, Beyrout, 2001p303.

(71) -Encyclopédie de l'islam , T.5,p403

(72) – بوعزيز،الرجع السابق، ص19.

(73) -Encyclopédie ....,p407

(74) -FAURE BIGUET(G.), " Notice sur le cheik –Abou –RAS-EN –NASIRI" in **J.A**, 9ème série, 1899,p418

(75)- سي يوسف، المرجع السابق ، ص193.

(76)- الناصري، المصدر السابق، ص91.

(77) - سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص274.

(78) - TURIN, Op.cit, pp126, 127.

(79) - Ibid, 130.

(80)- الناصري، المصدر السابق، ص91.

(81) - نور الدين عبد القادر ،صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي ، مطبعة البعث، قسنطينة ، الجزائر،1965،ص 213.

(82)- العيد، المرجع السابق، ص65.

(83)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص276.

(84) - EMERIT, l'état Intellectuel..., p4.

(85) - Ibid, p4.

(86)- سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص276.

(87) - TURIN, Op.cit, p131.

(88) - GEORGUOS: Op.cit, p410.

(89)- الناصري، المصدر السابق، ص78.

(90)-ابن سحنون، المصدر السابق ،ص127.

(91) - BELHAMISSI, Histoire de Mazouna, Des origines à nos jours. Imp. Ahmed Zabana, Alger 1982, pp49,50.

(92) - ibid ,p51

(93)- سعد الله، المرجع السابق ج1، ص285.

(94) -VENTURE(DE. P.),Op.cit ,p156.

(95)- سعد الله، ،المرجع السابق، ج1، ص273.

(96)- البوعبدلي المهدي،" الرباط و الفداء في وهران و القبائل" ،**الأصالة** ،عدد 13، الجزائر1973،ص 22.

(97)- التلمساني محمد بن عبد الرحمان" الزهرة النيرة بما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جند الكفرة" **تاريخ وحضارة المغرب،** العدد03، المغرب،1967 ص3.

(98)- مزيان عبد الحميد،"طريق الذهب و طريق الثقافة" **الأصالة**، عدد03، 1971الجزائر،،ص19.

(99)-المحافظة علي، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1954)،- الاتجاهات الدينية و السياسية و الاجتماعية و العلمية-، الأهلية للنشر و التوزيع،بيروت ،1978، ص18.

(100)- سعد الله ،المرجع السابق، ج1،ص272.

(101)- مزيان ، طريق الذهب...، ص18.

(102)- البوعبدلي، الرباط و الفداء ...، ص 25.

(103)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص18.

(104)- البوعبدلي ، الرباط و الفداء ...،ص19.

(105)- ابن سحنون، المصدر السابق ،ص 233. - سعد الله ،المرجع السابق ،ج1،ص272.

(106)- فركوس ، صالح، " الباي محمد الكبير ودوره في بعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب" **الثقافة**، عدد، 71 ، 1982 ،ص26.

(107)- ابن سحنون ، المصدر السابق ، ص233.

(108)- البوعبدلي ، الرباط و الفداء ...،ص 27، 26

(109)- بوعزيز ، أضاع المؤسسات، ص20.

(110)- البوعبدلي ، الرباط و الفداء ، ص 27

(111) - نفسه، ص27. – سي يوسف، المرجع السابق، ص194.

(112)- سي يوسف ،نفسه،ص194.

(113)-سعد الله، المرجع السابق ج1، ص286، 288.

(114)- التمغروطي أبو الحسن علي، النفحة المسكية في السفارة التركية ،ص139.

(115) - BELHAMISSI, Op.cit, p37.

(116)- ابن سحنون ،المصدر السابق ،ص127.

(117)- سعد الله ،محمد الشاذلي القسنطيني (1807-1877) ،ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974،ص16

(118) - GAFFAREL, Op.cit, p123.

(119)- الجبرتي، المصدر السابق ،ص74.

(120)- ابن سحنون ،المصدر السابق،ص58.

(121)- سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص 292،293.

(122)- ابن سحنون ،المصدر السابق ،ص59.

(123)– سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص289.

(124)- التمغروطي، المصدر السابق، ص139.

(125)- سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص296.

(126)- عبد القادر نور الدين، المصدر السابق، ص150. -سعد الله ،نفسه ،ص300.

(127) -سعد الله ،نفسه ،ص305

) - [128](GAFFARAL, Op.cit ,p123

(129)-.سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص301

(130)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص285.

(131)- ابن ميمون: المصدر السابق، ص60.

*** فقيه وصوفي ،تولى القضاء عهد الداي محمد بكداش و شغل منصب خطة المواريث ، شهد الفتح الأول لوهران و ألف فيه كتابه "التحفة المرضية....."

****هو محمد العربي بن محمد بن علي بن المهدي شاعروأديب له ديوان شعرفي المدائح النبوية ،توفي 1751م.

- .....أشعار جزائرية ،تقديم وتحقيق سعد الله أبو القاسم،م.و.ك، الجزائر ،1988،ص27. (132)

***** هو احمد بن عبد الله عمار المعروف بإبن العباس ،تولى الإفتاء بالجزائر له" الرحلة الحجازية" ،و"لواء النصر في علماء العصر".